التوظيف التاريخي للمكان في رواية "مدارات الشرق" لنبيل سليمان

باسل حسن الحسن*

قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة إدلب

***طالب دراسات عليا(ماجستير)**

الملخص

يهتم هذا البحث بالآلية التي اعتمدها الروائي نبيل سليمان للتعامل مع المكان في روايته "مدارات الشرق"، للإيحاء بتاريخية الرواية.

ولأن الرواية تعج بالأحداث التاريخية والأحداث الاجتماعية، إضافة لعدد هائل من الشخصيات، فمن الطبيعي أن تتعدد الأمكنة فيها وتتنوع. خاصة أن الرواية تحفر في تاريخ سورية من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى فترة الانقلابات العسكرية، وهي فترة زمنية طويلة.

وقد تتبع البحث أشكال المكان التي ظهرت في الرواية وطريقة ظهورها، والسرد الروائي للأحداث فيها، وحركة الشخصيات فيما بينها. فظهر المكان الريفي، للكشف عن طبيعة الحياة الريفية في سورية في تلك الفترة، وتصوير البؤس والشقاء للناس والفلاحين بسبب فظاعة المعاملة لهم من الإقطاعيين والآغوات والأمراء. وظهر المكان المدني لتتبع مظاهر الحياة في المدينة، وملاحقة الأحداث التاريخية والسياسية، والثورات ضد الفرنسيين وجرائمهم، ونشأة الأحزاب، وتعرية الواقع الموضوعي.

وظهر المكان المغلق الذي سيقت إليه بعض الشخصيات بسبب تمردها على واقعها المأسوي، وتصديها للمستعمرين والمتسلطين والمستبدين. كما ظهر المكان المفتوح لانفتاح الجغرافية السورية التي غطتها الرواية.

الكلمات المفتاحية:

المكان في الرواية، المكان الريفي، المكان المدني، المكان المغلق، المكان المفتوح، رواية مدارات الشرق.

المقدمة:

تتنوع أشكال المكان في الفن الروائي من كاتب لآخر، ومن رواية لأخرى للكاتب نفسه. وما يحكم ذلك طبيعة الرواية أو شكلها الفني، لخدمة الهدف الإستراتيجي للرواية.

والمكان في أية رواية هو الفضاء الذي تجري فيه الأحداث، وتسكن أو تتحرك فيه الشخصيات. لكنَّه في الرواية التاريخية يتسم بدلالات خاصة، يريد الكاتب لها أن تعطي إشارات تاريخية جديدة من وجهة نظره. فهو يعيد كتابة التاريخ من جديد بوسائله الفنية، مستخدمًا عناصر بنية الرواية بطرائق مختلفة، ومنها المكان.

أهمية البحث وأهدافه:

تنطلق أهمية البحث من الأثر المهم للمكان في الرواية، إذ لا يمكن تصور رواية من دون أمكنة تحتوي الأحداث والشخصيات. كما أن الرواية هي فن زماني، كذلك هي فن مكاني.

وتوظيف المكان في الفن الروائي بما يتوافق ورؤى المؤلف وتصوراته– بما يحمله المكان من ملامح وصفات، وعواطف ونوازع، وعلاقات وتجارب اجتماعية– بحاجة إلى وسائل فنية متعددة.

ويهدف البحث إلى تقصي هذه الوسائل التي استخدمها الروائي لجعل المكان مكونًا سرديًا، يقوم بوظائف متعددة، ويعطي إشارات ودلالات توحي بواقعية الأحداث وتاريخيتها. كما يهدف إلى التعرّف على أشكال المكان وتنوعاته التي تقوم بتلك الوظائف.

طريقة البحث:

سيعتمد البحث على المنهج الوصفي، وذلك بدراسة الظواهر الفنية لاستخدامات المكان، وطرائق توظيفه في الرواية، ووصفها بطريقة علمية، للوصول إلى تفسيرات منطقية لها. إضافة إلى الاطلاع على المصادر والمراجع اللازمة لدعم البحث بالأمثلة والشواهد والأدلة، كي تكون النتائج منطقية وواضحة.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة تضمنت الفرق بين المكان في الرواية بشكل عام، والمكان في الرواية التاريخية بشكل خاص. وأهميته التي بينت جدواه وهدفه، ومبحثين، والخاتمة والنتائج.

المباحث والمناقشات:

1- تعريف المكان في الرواية:

المكان هو الحيّز الجغرافي الذي تدور فيه أحداث الرواية, وتتنقل فيه الشخصيات التي تتفاعل فيما بينها بجملة من العلاقات في الفضاء المكاني, ومكان الرواية: "هو المساحة التي تحدث فيها الأحداث, وتنفصل بوساطتها الشخصيات بعضها عن بعض, وهي تفصل القارئ عن عالم الرواية, فتنقله من مكان إلى آخر ليتعرف على أماكن شتى"[1].

وهو يختلف بذلك عن الزمن من حيث ماديته الملموسة. إذ إنّ "المكان شيء محسوس، بخلاف الزمان الذي هو مرتبط بإدراك الإنسان النفسي, فإنْ كان الزمان يمثل الخط الذي تسير عليه الأحداث, فالمكان يمثل إطارها. ويظهر أثر الزمن فيما يصيب الأشياء من تدهور وانحطاط, بينما يظهر المكان بما يملؤه من أشياء, والتي تقوم في الرواية عن طريق الوصف"[2].

ولا يمكن فصل المكان عن بقية عناصر الرواية الأخرى, فغالبًا ما يتجلى بالوصف, كما أنه يحدد ملامح الشخصيات وسماتها المرتبطة ببيئتها، "وليست الشخصيات وحدها

هي التي تقدم للقارئ معلومات عن الشخصية, فالأمكنة تشترك معها في تشكيل صورة الشخصية, وتظل بصمات المكان واضحة في لغة الشخصية وسلوكها ومزاجها وملامحها"[3].

فالمكان ذو أهمية كبيرة في تحديد ملامح الشخصيات وسلوكها ولغتها, وله ارتباط كبير بالأحداث التي تختلف بطبيعتها وأسبابها من مكان لآخر, وتعدد الأمكنة وارتباطها بالشخصيات المتنقلة فيما بينها, والأحداث الجارية في تلك الأمكنة, يشكّل فضاءً عامًا للرواية. والفضاء: هو مجموعة متشابكة من العلاقات, لا تنشأ إلا في نهاية الرواية, إذ إنّه مجموع الأمكنة التي ترصدها الرواية, وعلاقات تلك الأمكنة بالشخصيات, والأبعاد الخاصة التي تكسبها الشخصيات للأمكنة, والتأثيرات الخاصة, التي تكسبها الأمكنة الشخصيات, أما المكان فهو الحيز أو الجزء الجغرافي, وتتحدد أهميته بأسلوب حركة الشخصيات فيه, فالبيت الذي شهد طفولة إحدى شخصيات الرواية, يختلف تأثيره في البعد الروائي الدلالي عن مكان آخر, كشارع مرت به الشخصية نفسها أو مقهى, أو أي مكان آخر, ومن هنا فعلاقة الفضاء بالمكان, علاقة احتواء، إذ إنّ الفضاء يحوي المكان, واجتماع الأمكنة, يشكل الفضاء الروائي, وبالطبع فالفضاء ليس فقط اجتماع أمكنة, بل هو تلك الأمكنة, وتفاعلاتها مع الشخصيات الروائية, والأحداث، والزمان[4].

فتفاعل المكان مع بقية عناصر السرد الأخرى يشكل الدلالة الوظيفية للمكان, و"المكان لا يعيش منعزلًا عن باقي عناصر السرد وإنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد كالشخصيات والأحداث والروايات السردية... وعدم النظر إليه ضمن هذه العلاقات والصلات التي يقيمها يجعل من العسير فهم الدور النصي الذي ينهض به الفضاء الروائي داخل السرد"[5]. فالفضاء الروائي عام، والمكان خاص, حيث: "إنّ الفضاء في الرواية هو أوسع, وأشمل من المكان, إنّه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكي سواء تلك التي تم تصويرها بشكل مباشر أم تلك التي تدرك بالضرورة, وبطريقة ضمنية مع كل حركة حكائية"[6].

والمكان الروائي يعدُّ من أهم عناصر بنية الرواية, إضافة إلى العناصر الأخرى، ويعدُّ "افتتاح الرواية بالمكان من أكثر السبل شيوعًا للدخول إلى عالم الرواية, وكأن المكان هو البوابة الأقدر على تمكين القارئ من النفاذ إلى داخل الروايات واكتناه أعماقها"[7].

وخير دليل على ذلك افتتاح نبيل سليمان روايته (مدارات الشرق)– النموذج المحدد للدراسة في هذا البحث– وفي أول سطر من الرواية, بذكر جبل قاسيون في دمشق، وتابع في السطور التالية تعداد الكثير من الأمكنة: "قريبًا من السماء بدا قاسيون قلقًا عليها. كانت تحاول تتمطى, لهفى إلى الشمس التي أشرقت لتوها, فأضاءت الجبل وحده، فيما لا زالت غلالة العتمة الشفيفة تتراقص فوق سفوح الأدغال والعمران, وتوشك أن تتناهى في الأمداء القصية.

بين يدي قاسيون انفلش الحقل الذي قيل إن قابيل قد قتل فيه هابيل. وبين ألوان الخريف والحرب والمقام التركي– أو ما كان سوى ذلك أيضًا قبل هذا الصباح– تلامحت السراي والقصور, المحطات والكنائس, ولمعت صفحة فروع النهر, كما تكوكأت الأكواخ والبيوت والأسواق والزواريب"[8].

وكثرة افتتاح الروايات بذكر المكان, يؤكده (شارل كريفل) في بحثه (المكان في النص) ضمن كتاب (الفضاء الروائي) حيث يقول: "يكاد تعيين الموضع يرد في الرواية, بصفة دائمة, منذ سطورها الأولى بل إنه ليرد, في الغالب, في أول جملة فيها"[9]. وهذا ما رأيناه في (مدارات الشرق). ويتابع شارل كريفل قائلًا: "إن كل قصة تفترض نقطة انطلاق زمنية ونقطة اندماج في الفضاء, أو يلزم كل قصة, على الأقل، أن تحدد منذ البداية, زمانها ومكانها معًا"[10].

وللمكان أهمية كبيرة في الإيحاء بأنّ الرواية واقعية وحقيقية, وخاصة في الروايات التاريخية, إذ "إن المكان يعطي الانطباع بأنّ النص حقيقي. فهو يؤكد أن ما يُحكى داخله إنما هو محض تشخيص. وبفضل المكان يحيل النص ويتبدى كأن له علاقة بشيء خارجي, أو هو صورة عنه أو محاكاة له. مما يجعل النص في مواجهة مستمرة"[11], على حسب

تعبير (شارل كريفل). وذلك من خلال العلاقات الإنسانية المتشابكة والمعقدة التي تقيمها الشخصيات فيما بينها في مكان معين، أو في أمكنة متعددة, وسيرورة الأحداث المرتبطة بتلك الأمكنة، وبأزمنة معينة، ليتشكل الفضاء الروائي العام الذي يحتوي المكان. و"الفضاء شرط الوجود الإنساني, وتعيينه الذاتي لا يتحقق إلا به وفيه, والحضور والغياب يكونان في الفضاء. فحضر الشخص, أي حلَّ في فضاء, وغاب, أي حلَّ في فضاء آخر. الفضاء هو البدء والمنتهى"[(12)].

فتعدد الأمكنة يشكّل فضاء الرواية، ولا وجود للشخصيات خارج إطار المكان, ولا وجود للرواية من دون مكان أو أمكنة (فضاء) تدور فيه أو فيها الأحداث. فالمكان عنصر مهم من عناصر بنية الرواية, لا يمكن للرواية أن تنهض وتُبنى فنيًا إلا به.

2- المكان في مدارات الشرق:

يسمِّي معظم النقاد رواية (مدارات الشرق) برواية الشخصيات, وذلك نظرًا للكم الهائل من الشخصيات التي ظهرت في الرواية, ومن الطبيعي أن يظهر بالمقابل عددٌ هائل من الأمكنة التي تعيش وتتنقل فيما بينها تلك الشخصيات الكثيرة. ولأنَّ الروائي يعالج في روايته الفنية الأحداث التاريخية التي عصفت بتلك الحقبة الزمنية الطويلة الممتدة والمحددة عبر صفحات الرواية, تلك الأحداث التي تمخض عنها التاريخ السوري الحديث, فقد تنوعت، وتعددت الأمكنة التي كانت مسرحًا لتلك الأحداث بشكل مباشر أو غير مباشر, لذلك نجد أنّ الرواية حاولت تغطية المساحة الجغرافية السورية بشكل كامل من الشمال إلى الجنوب, ومن الشرق إلى الغرب. هذا إضافة إلى المحيط الإقليمي والدولي (تركيا، بريطانيا، ألمانيا...). هذه الأمكنة التي كانت مسرحًا للأحداث التاريخية التي جرت على الأرض السورية.

وقد افتتح نبيل سليمان روايته على عادة الروائيين- كما أشار النقاد إلى ذلك- و- كما أشرت سابقًا- ومن السطر الأول بتحديد المكان الذي انطلقت منه الأحداث الروائية، والأحداث التاريخية إلى بقية الجغرافية السورية المناطة بتلك الأحداث, فمن جبل قاسيون

المطل على العاصمة الأقدم في التاريخ (دمشق), ومن الحدث الأقدم والأعظم في التاريخ (قتل قابيل هابيل), يقفز الروائي مدة زمنية طويلة جدًا, من وجود البشرية على سطح الأرض، ليصل إلى حدث عودة الجنود الخمسة من الجيش الميمم شمالًا إلى دمشق, ثم عودتهم إلى قراهم ومدنهم, وانتشارهم في الأرض السورية, لتنشأ شبكة من العلاقات المتشعبة بين الأمكنة التي حضرت في الرواية.

ثم إنّ هذه الأمكنة ظهرت بأنماط وأشكال متعددة ومتنوعة, بحسب شدة الأحداث التاريخية أو تواترها التي تعاملت معها الرواية, فظهر المكان الريفي, والمكان المدني, والمكان المغلق والمكان المفتوح.

2-1-المكان الريفي:

بدأ الروائي بسرد أحداث الرواية من دمشق, ومن خلال تجمع الشخصيات الخمس الأولى فيها, ولكن بعد عودتهم إلى قراهم, بدأ حضور المكان الريفي بشكل واسع, ويقول (عبد الرزاق عيد): "يمكن القول إن حجم الحضور الريفي في الرواية يشغل الفسحة الأوسع في فضاء (مدارات الشرق), ولربما أمكن تعليل ذلك في الإحالة إلى مرجع واقع سمته الأساسية هيمنة العلاقات الزراعية الإقطاعية على المجتمع السوري في بدايات هذا القرن ولفترة ليست بعيدة"[13].

والروائي (نبيل سليمان) في إطار كشفه عن التاريخ الريفي في تلك الحقبة التاريخية, كثّف من ذكر الأماكن والقرى الريفية السورية التي شهدت أحداثًا تاريخية، سواء أكانت ثورات شعبية ضد محتلين، أم تمردات عفوية ضد مستغلين أو مضطهدين أو إقطاعيين مرتبطين بارتباطات استعمارية خارجية، أو رأسماليين في الداخل السوري. وفي ضوء هذا الرصد التاريخي لتلك الأحداث، يظهر التعليل والتفسير المنطقي لتعدد الأماكن الريفية: (كالمشرقة, كفر لالا, تلدف, سفيرة, الزنبقلي, الجسر, دير عفان, تلكلخ, قبية, عين فيت, العال, مسكنة, الموحسن, الحرزة, المريجانة, عكّار, كفر حبوس, كفريا, الزيارة, عين عرموس, الباريزيانا, الشيخ حسن, عين آدم, البطيحة, الغوطة, أبو قلقل, الزبداني, ربيع

جوبر, الصوفانية, مرجمين, المعرة, حضر, شبعا, بانياس, بئر عجم, عرنة, الشيحا, جبل حسية, شمسين, قارة, صدد, سرغايا, الحفة, كفر تخاريم, سلقين, حارم, تل عابور, البونيا, الميادين, البودي, بللوران, الطفطافة, تل أبيض, عين التركمان, كسب, القزلي, كفر عيد, أرض الشيوخ, القصير, رأس العين, الدرباسية, عامودة, الحويجة, عين التركمان, صلخد, إربد, شهبا...)، حيث غطت هذه الأمكنة الريفية المساحة الجغرافية السورية بشكل عام.

وقد عرّى (نبيل سليمان) من خلال هذه الأمكنة الواقع الريفي التاريخي في تلك الفترة، في ظل ما تعرضت له بعض الشخصيات في مواطنها أو في بعض الأمكنة التي انتقلت إليها. ويكاد يكون المنظور السردي تجاه الأحداث التي جرت في الأرياف متطابقًا بشكل كبير, فوقف الروائي إلى جانب الشخصيات المظلومة في تلك الأمكنة ضد مضطهديها ومستغليها, ثم إنّه طابق بين أشكال الظلم الذي كانوا يعانون من وطأته, وطابق بين السمات الفردية لمرتكبي ذلك الظلم من الإقطاعيين، أو الأمراء المتسلطين، أو شيوخ القبائل في البوادي السورية.

فما فعله رستم آغا (آغا الزنبقلي) بفلاحيه أثناء وجود ياسين الحلو في الزنبقلي من أعمال وحشية وممارسات إجرامية، واستغلال للفلاحين, يشابه ما كان يفعله بيت بشارة بفلاحي (قبية) قرية عزيز اللباد, ويشابه ما كان يفعله عبود بك الرشدة بفلاحيه في (سهل عكّار)، وما كان يفعله الأمير دشاش بعبيده في (عين آدم).

والروائي (نبيل سليمان) وقف إلى جانب الطبقات المُستغَلَّة في تصوير بؤسها وشقائها، تحت نير ذلك الظلم الذي كان يقبع ويخيم عليها في الأمكنة التي جوّل فيها الروائي شخصياته الفنية. لذا دفع بعض الشخصيات المقهورة إلى التمرد ومواجهة هذا الظلم. وذلك ما قام به سفلو النجّار حين واجه ضربات حارس رستم آغا، بعد أن قتل الأخير كامل الجقلة، لاتهامه بسرقة كيس الطحين، فصد ضربة الحارس، ونتر العصا منه, واستطاع أن يهرب من بين حرّاس الآغا كالجني, على الرغم من تهديد رستم آغا ووعيده[14]. ومثله ما فعله عزيز اللباد في سهل عكّار حين قتل عبود بك الرشدة هيلانة التي أحبها عزيز

بطريقة بشعة, فقام عزيز بإطلاق الرصاص عليه وقتله, انتقامًا لهيلانة، وللممارسات الوحشية التي كان ينتهجها عبود بك بحق عبيده وخدمه[15].

ثم إنّ الروائي ومن خلال حركة الشخصيات في الأمكنة الريفية السورية التي ذكرها في الرواية, التي قد لا تطابق الأمكنة الواقعية بالضرورة، لكنها قدمت إيحاءً بالمطابقة الواقعية للأمكنة الحقيقية, من خلال الكشف عن طبيعة تلك الأمكنة، وعلاقات الناس فيها، وطبيعة العادات والتقاليد السائدة كالزواج والأعراس، والصيد والرعي، والزراعة والتجارة والتهريب، والبغي والظلم، والذل والخنوع، والتمرد والمواجهة.

وفي ظل ذلك كان الروائي حريصًا على تعرية سلبيات ذلك الواقع، واستهجان مرتكبي تلك السلبيات عن طريق مجموعة من الشخصيات الإيجابية التي نقل بفضلها التمرد من الريف إلى المدينة، لتجاوز ذلك الواقع المعتم الذي قدّم له الروائي العديد من الأمثلة والصور, ومنها: "انقضى الشتاء كله فيما شمل المشردين يتبدد, ومسالكهم تتباعد, وأخبارهم تنقطع, وفي آذار ماتت شقيقة ياسين الرضيعة, وكانت الدروب قد أفضت ببقية باقية من الأسر المهجّرة إلى هذه الجبال, يقودها والد ياسين بعيدًا عن تلدف وحلب كلها.

في دير عفان كانت المحطة الأولى. رحب بهم الآغا وضحك أيضًا لحكاية التابوت, ورثى لشتائهم، ثم أعطاهم فؤوسًا كي يقلعوا الأحراش آمرًا:

– اكسروا الأرض وازرعوها. سأدفع عنكم العشر وأقدم لكم البذار وكل ما تحتاجون، ويكون لكم الثمن فوق ذلك كله.

آوى الآغا كل أسرتين في بيت واحد ثلاث سنين, قبل أن يخصّ كل أسرة ببيت, بعد أن خسر الدعوة التي أقامها على رستم آغا. ولم يكن ثمة من يعلم علام أقيمت الدعوة وكيف صدر الحكم فيها؟ بيد أنه أثر ذلك بشهور بدأ الفلاحون القدامى والفلاحون القادمون من تلدف يرحلون عن دير عفان إلى الزنبقلي"[16].

وتكاد تكون هذه الصورة بمنزلة تعميم فني للواقع الريفي للإنسان السوري في تلك الفترة على امتداد مساحة الأرض السورية. من حيث استغلال الآغوات والإقطاعيين

للفلاحين واضطهادهم في تلك الفترة، التي كان الفلاح يعمل بها بقوت يومه فقط. إضافة إلى أبشع الممارسات غير الإنسانية بحقهم وبحق عائلاتهم.

2-2-المكان المدني:

أظهرت الرواية وجودًا للمدن السورية الرئيسة بشكلٍ كامل, والتي تسمَّى اليوم بالمحافظات السورية. ومن خلال توافد الشخصيات من الأرياف إلى المدن بدأ الحضور المدني للمكان يتجلى بوضوح أكثر, وقد ساهمت شبكة العلاقات التي كانت قائمة بين بعض الشخصيات في الأرياف، وبعض الشخصيات المتنفذة في المدن في تعزيز هذا الحضور للمكان المدني.

ولم يغفل المنظور السردي أية مدينة كبرى من المدن السورية, فظهرت: (دمشق, القنيطرة, السويداء, درعا, حمص, حماة, اللاذقية, طرطوس, حلب, إدلب, الرقة, الحسكة, دير الزور)، ولكن بحكم العناية السردية بملاحقة الأحداث التاريخية التي كانت صاحبة الأثر في تحويل مجرى التاريخ السوري على امتداد مساحة السرد الروائي لتلك الأحداث, تمّ التركيز على مدنٍ بعينها، نظرًا لكثافة الأحداث التاريخية التي شهدتها قياسًا بغيرها من المدن, وللأثر الكبير الذي تمثل بتفاعل الكثير من الشخصيات الفنية مع هذه المدن, سواء بكثرة مكثهم بها وتنقلهم فيما بينها, أم بارتباطاتهم مع شخصيات مشهورة فيها، وتتسلم سدة الإدارة بها, (كالعاصمة دمشق، وحمص، وحماة، وحلب). خاصة العاصمة دمشق التي شهدت حضورًا مكثفًا لوجود بعض الشخصيات المهمة فيها، التي كان لها شبكة واسعة من العلاقات مع معظم شخصيات الرواية المنتشرة في أرجاء سوريا، كسليم أفندي البسمة والباشا شكيم وهشام الساجي والعم حاتم أبي راسين وفؤاد الباشا وعلاء البسمة وتحسين شداد.

وقد نتج عن تفاعل هذه الشخصيات مع الشخصيات القادمة من الأرياف- وخاصة الأصدقاء الخمسة (عزيز اللباد، وفياض العقدة، وإسماعيل، وياسين الحلو، وراغب الناصح), ومع بعض الشخصيات الأخرى الوطنية أو الانتهازية- غطاءً مكانياً، غطى العاصمة دمشق بأحيائها وساحاتها وفنادقها ومقاهيها ومستشفياتها وأزقتها وجوامعها, من خلال انتشار

هذه الشخصيات ونشاطها ووجودها، واندماجها وتأثّرها وتأثيرها بالأحداث التاريخية أو الروائية في تلك الأمكنة المتعددة, ومنها: (الميدان, المهاجرين, الشيخ حسن, المرجة, باب توما, باب كيسان, باب شرقي, العصرونية, السنانية, الشاغور, المزة, خان الجمرك, عرنوس, أبو رمانة, ساروجة, سوق الحميدية, سوق البذورية, شارع بريطانيا, مقهى الليدو, مقهى فيفافيلا, مقهى كوكب الشرق, مطعم الأمراء, العباسية, ركن الدين, سوق القوافين, سوق القباقبية, الجامع الأموي, جامع الدقاق, سوق مدحت باشا, المسكية...).

وقد شهدت هذه الأماكن العديد من الأحداث، كالمظاهرات، أو المؤتمرات، أو ما كان مقرًا للأحزاب، أو شركات للتجارة, أو جلسات للنقاش بأمور البلاد, ومنها ما تعرض للقصف والحرق والدمار, حيث يقول الروائي: "وبغتةً دخلت فرنسا, واندلعت النيران في سوق الحميدية, من محلات سنجر حتى العصرونية وخان الجمرك, وحاصرت الأموي ثلاثة أيام حتى أتت على كل ما يملك صهره وما حولها من دكاكين الصرافة والدخان والتنباك"[17].

وقد ظهرت مدينة حمص وأحياؤها بحضور العم حاتم فيها، إضافة إلى نظمي بدير وعزيز اللباد وفياض العقدة ونجوم الصوان, فشارك العم حاتم ونظمي وعزيز في القتال ضد الفرنسيين في حمص، التي ارتبطت بها أيضًا شخصيات متنفذة من أسرة الأكاشي، كإحسان بك الأكاشي الذي عيّنه الشيخ زين محافظًا لحمص, ثم أصبح وزيرًا للإعاشة في الحكومة, والدكتور نورس الأكاشي الذي ارتبط اسمه بحزب العصبة.

ويعدد الروائي بعض أحياء مدينة حمص من خلال تذكر إحسان الأكاشي لطفولته فيها: "وسوى قليلين, ضاعف المطر قلّتهم, وبلّل حرارتهم, لم يلاقه أحد. السراي نفسها كانت باردة وواجفة, لذلك تعجل المساء والعودة إلى البيت، كما تعجل الصحو في الصباح, وهو يتأمل ما ابيضّ من شعره, يغافل الحاجة, ويتقمص الشاب الذي كان منذ عشر سنوات يفيض عافيةً في ركاب الأمير الحجازي, يدور على فرسٍ كميت من باب الدريس إلى باب السباع, ومن باب تدمر إلى باب السوق, فباب هود, فباب التركمان, ليهيئ القلعة من الجهات الأربع, إذ لن يلبث المحافظ الجديد– أو الأمير الحجازي, لا فرق– أن يصل. لكن

ربلتي ساقيه تخزانه, كأنه لا يركب فرسًا ولا سيارة. بل يمشي في هذا الصباح الباكر, من البيت إلى سوق الحشيش"[18].

وظهرت مدينة حماة وأحياؤها من خلال نقل عزيز اللباد وفياض العقدة إليها، لمراقبة بعض الأفران فيها, وقد أسفر ذلك عن تعرّف فياض على عائلة الصوان وحبّه لنجوم الصوان, ومشاركته مع عزيز في معركة مرجمين، إلى جانب أهالي القرية ضد الحكومة. وظهرت بعض الأحياء من خلال تجوّل الأستاذ جهاد إدريس في حماة، بعد سفره إليها بسبب طرده من الحزب السوري القومي, ورفض عائلة الباشا شكيم تزويجه كوثر, وتلك الأحياء هي: (الجسرية, المأمورية, الطوافرة, الكيلانية), كما ذُكرت بعض الأمكنة مثل: (جسر السرايا, مدرسة الإخاء, قبو البيمارستان, الناعورة الجعبرية, الجامع الكبير), وقد قام جهاد إدريس بترشيح نفسه للانتخابات البرلمانية، وفاز بانتخابات الدرجة الأولى، وتزعم حزب الشباب في حماة.

وظهرت مدينة حلب من خلال ارتباط عائلة الجويبري بها، وخاصة رشاد بك الجويبري الذي أصبح وزيرًا للعدل, وذُكرت بعض الأماكن والأحياء فيها, مثل (باب جنين, الشهباء, سينما رويال, نهر قويق).

وامتد المكان المدني إقليميًا ودوليًا، لارتباط الرواية بالتاريخ وأحداثه التي لها امتدادات إقليمية ودولية وجيوسياسية. فظهرت إقليميًا العديد من المدن الفلسطينية، والأمكنة التي تجوّلت فيها ترياق الصوان، بعد هربها من نورس الأكاشي وبديع الطارة إلى فلسطين, مثل: (يافا, الطابية, الروشا, المنشية, النزهة, الناصرة, حيفا, القدس, كنيسة البشارة, كنيسة مار يوسف).

كما ظهرت بعض الأمكنة والمدن الإسرائيلية التي انتزعها الإسرائيليون من فلسطين عنوةً, من خلال تجوّل عزيز اللبّاد فيها, الذي فرّ إلى فلسطين المحتلة بعد علمه من أخيه معروف بنية ناصيف أفندي ابن بشارة, وابن الدبّاس الوزير في حكومة العلويين, شنقه لأنه

قتل عبود بك الرشدة[19], مثل: (نابلس, عرزيم, عيبال, حارة الحبلة, حارة الياسمينة, جامع الساطون, جامع الأنبياء, المحطة, برج الساعة, تل السمك, حارة أبو كبير).

وظهرت (بيروت) عاصمة لبنان من خلال وجود الخواجة ثابت فيها, ودراسة فؤاد الباشا فيها، وتعرّفه على ترياق الصوان فيها, وعلى زعيم الحزب السوري القومي.

أمّا دوليًا فظهرت العديد من المدن الأوربية, (كلندن) عاصمة بريطانيا التي تزوجت بها أخت الباشا شكيم لميعة من المستر بيجيت, و(برلين) عاصمة ألمانيا التي سافر إليها عدي البسمة ابن سليم أفندي البسمة للدراسة, فظهرت فيها بعض الأمكنة والمدن, مثل: (محطة انهالتر, أوتيل الإكسسليور, شارع بودابست, محطة تسو, تمثال النصر, قصر شارلتنبورغ).

2-3-المكان المغلق:

تمظهر المكان المغلق في (مدرات الشرق) بنوعين:

أ-المكان المغلق قسريًا:

وهو السجن، وقد أدّت الأحداث الروائية إلى سوق العديد من شخصيات الرواية إلى السجن، كهزّاع نصر ابن السويداء، الذي تشامخ في سجن القلعة عشرة شهور، وبال المستنطق الفرنسي في حلقه، وخفضت المحكمة حكمها إلى الأشغال الشاقة المؤبدة لسبب ما، وهزّاع على شفير الموت، ثم نُفي إلى سجن الرقة، ومن ثم خرج بالعفو. وكل ذلك بسبب مقاومته للاحتلال الفرنسي عسكريًا[20].

وهولو التكلي الذي اقتيد أيضًا إلى سجن القلعة، بسبب نقله بعض منشورات الحزب الشيوعي من بيروت إلى دمشق، بعد اتفاقه مع بديع الطارة على ذلك، "ثلاثة أو أربعة أشباح تماثلت له عندما صفق السجّان الباب خلفه. هزّ يديه، ثم حمل كلًا منهما على أن تنهش ساعد الأخرى، ثم سقط أو تربع أو تكور أو استلقى، حتى انقضى ذلك اليوم، وهو عاجز إلا عن الأنين"[21]. بسبب نضاله السياسي ضد حكومة الشيخ زين

وحكومة فرنسا، وخرج من السجن بوساطة أخيه عمر التكلي لدى الشيخ زين، حيث كان شديد الصلة به[22].

ولم تسلم أرملة هولو التكلي حُسن نيله من عقوبة السجن، لاشتراكها بالمظاهرات النسائية، لمطالبة النواب ورئيس الجمهورية برفض المعاهدة مع فرنسا، فسيقت من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي أيضًا الى سجن القلعة، واستُجوبت، وسبَّها الحارس، وحُكم عليها بالسجن سنةً، وخُفف الحكم بوساطة سليم أفندي من سنة إلى شهر، وقام بدفع الغرامة، فخرجت من السجن[23].

فلم تفرّق سلطات الاحتلال الفرنسي بين الرجال والنساء، ولا بين النضال العسكري والسياسي، ضدهم بالعقوبة، بتواطئ من السلطات المحلية. وألقت الأحداث التاريخية بظلالها على الأحداث الروائية، فأدّت إلى زعزعة استقرار الشخصيات الروائية، واقتادت بعضها إلى السجن القسري، بسبب انفعالها وتأثّرها بالحدث التاريخي العام. كما حدث مع هزّاع نصر وهولو التكلي وأرملته حُسن نيله.

ب-المكان المغلق طوعيًا:

نتيجة لتأثّر الشخصيات بالحدث التاريخي العام، تخلخل التوازن السلوكي لبعض شخصيات الرواية، فمنها من تحرّك للمواجهة والمقاومة، ومنها من قام بحبس نفسه، وإغلاق باب منزله عليه.

فالباشا شكيم أحد أهم شخصيات الرواية الرئيسة، ومن كان في قمة طبقات المجتمع الروائي، سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، أغلق باب منزله عليه بعد الانقلاب الثالث (انقلاب تحسين الخفي أو الأوحد أو قراقوش، كما سمّاه الراوي)، وحبس نفسه في إحدى غرف منزله في دمشق، ليكتب مذكراته، بعد إحساسه بأنه يموت منذ سبعة أشهر أو ثمانية، أي من بعد استدعاء تحسين شداد (تحسين الأول) له، وهو صاحب الانقلاب الأول، وصهره سابقًا، ووالد حفيدته زهرة شداد. فقد استدعاه لأنه كان ينوي تقديم طلب ترشيح لرئاسة الجمهورية بعد انقلاب تحسين الأول، فوبّخه، وهزّأه بكلام بذيء، وقال له:

ألم أحرّم الطرابيش؟ وأخذ الطربوش منه، وقال له: رح قدم طلب الترشيح للرئاسة، وإياك أن يراك الناس إلا هكذا. ولو لم يشعر سليم أفندي بغياب الباشا شكيم، فاقتحم منزله، وفتح غرفة سجنه عليه، لم يُعرف أمر الباشا شكيم الذي مات بعد فترة وجيزة، ولم يُرد أن يعرف الناس ما فعله به تحسين الأول إلا بعد موته، ومن خلال مذكراته التي كتبها في سجنه في غرفته[24].

فهذه إحدى صور المكان المغلق طوعيًا. والأثر النفسي لهذا المكان أشدُّ وطأةً على الشخصية من المكان المغلق قسريًا، بدليل خروج هزّاع نصر وهولو التكلي وحُسن نيله، والكثير من شخصيات الرواية من السجن على قيد الحياة، على الرغم من معاناتهم القاسية جدًا في السجون، بعد أن جرفتهم الأحداث الروائية إليها. وخروج الباشا شكيم ميتًا من سجنه الذي ساق نفسه إليه طواعية.

2-4-المكان المفتوح:

أسهم العدد الهائل من الشخصيات في الرواية، مع كثافة مجرى الأحداث الفنية وتداخلها مع الأحداث التاريخية إلى انفتاح الفضاء الروائي، فتعددت الأمكنة المفتوحة في الرواية، واندفع الكثير من شخصيات الرواية إلى المغامرة أو الهجرة أو السفر إلى أمكنة متعددة، بحثًا عن العمل، أو الأمان، أو الهرب من ملاحقة متسلط أو مستغل أو قوات احتلال غاشمة، أو طلبًا لثأر، أو الفرار من فعلة ما. فبعد أن ألغت الحكومة المخافر، أُلغي مخفر عين فيت في الجولان. فقرر راغب الناصح خطف دهيبة بنت الشيخ جهجاه من زوجها[25]، وتوجّه بها إلى (اللجاة) باستضافة الشيخ مصرب[26]، ولأن الشيخ مصرب وضع عينه على الخيل والبنادق التي كانت بحوزة راغب ودهيبة، قرّر التوجّه إلى حوران (درعا)[27]، وهناك التقى بعمر التكلي، فتعاظم نفوذه بعد شغله مع عمر[28]. وفي إحدى عوداته لبيته، وجد زوج دهيبة السابق في بيته[29]، فقبض عليه، وعاد به إلى الجولان لعند الشيخ جهجاه، معتذرًا عن تأخّره عن دفع مهر دهيبة على عادة البدو سابقًا في تلك المناطق أثناء خطفهم لامرأة ما[30]، فأمر الشيخ جهجاه زوج دهيبة السابق أن يطلّقها،

ونصح راغب بالذهاب إلى مضارب الأمير دشاش في (عين آدم) في ريف حلب، للعمل معه، وجمع مهر دهيبة[31].

وهناك بعد أن أخذ مكان صديقه ياسين الحلو، نال حظوة الأمير دشاش الذي ورث أباه الشيخ مدحل، وبعد أن زار دهيبة محمّلًا بمهرها والهدايا، عاد إلى عين آدم، ومن ثم توجّه إلى الشرق بمهمة من الأمير دشاش، فبدأ بـ(رأس العين) في الحسكة، ومن ثم (الدرباسية)، ومن ثم (عامودة) و(القامشلي) و(قبور البيض)، ثم إلى (دير الزور)، لتتعدد مدن دير الزور وقراها وأريافها وبواديها (الميادين، البوكمال، الشامية، مصب الخابور)[32].

وخلال تنقل راغب الناصح بين هذه الأماكن، يغور الروائي في سمات العادات السائدة لدى أناس تلك المناطق وتفاصيلها، ويكشف النقاب عن ماضي العشائر فيها، وعاداتهم وتقاليدهم، موليًا السرد عناية دقيقة بتلك التفاصيل.

والاستثمار الفني للتاريخ حرّك شخصية سليم أفندي، ودفع بها من دمشق إلى دير الزور إلى العراق (بغداد)، ومن ثم إلى السعودية (الرياض)، بعد اتهامه بقتل (الحكيم)، وعلى الرغم من براءته ظلّ في بغداد، بعد أن تسلل إليها بمساعدة تحسين شدّاد عبر دير الزور، ومن الحدود السورية العراقية. وفي العراق ومن خلال اهتمامه بأحداثه، تجلّت المقاومة لليهود والإنكليز، وأيقن سليم أفندي أن لا استقلال للعراق إلا بخروج الإنكليز منه. ثم سافر إلى السعودية[33] ومن السعودية إلى درعا ثم إلى دمشق[34].

فأدّت سيرورة السرد الروائي للأحداث التاريخية والأحداث الروائية، إلى تنقلات قسرية لبعض الشخوص الروائية من المناطق الداخلية في سورية إلى المناطق المفتوحة جغرافيًا وروائياً، بفعل الاضطرابات النفسية التي عانت منها تلك الشخصيات، كراغب الناصح وسليم أفندي.

فاتّجه راغب الناصـح إلى الشـرق، بحثًا عن العمل والمال والحظوة. واتجه سـليم أفندي إلى الشرق أيضًا، هربًا من جريمة خاف العقاب عليها، على الرغم من براءته منها، ومن ذلك الشرق السوري دخل العراق متسللًا ثم إلى السعودية.

فكان الشرق الملاذ الواسع والآمن لتلك الشخصيات، لتتحدد ملامح تلك الأماكن المفتوحة وسماتها، من خلال عادات أهلها وتقاليدهم وأساليبهم المعيشية.

3- الخاتمة والنتائج:

حاول الروائي تغطية سورية من الناحية الاجتماعية، فلم يظهر المكان بالوصف، وإنما عن طريق تفاعل الناس الاجتماعي مع الأمكنة. ونظرًا لكثافة الشخصيات الروائية وكثافة الأحداث الروائية بفعل التأثير العام للحدث التاريخي، وهو النهر الغزير الذي رفد مجاري الأحداث الروائية، فقد تعددت الأماكن في الرواية، وتنوعت بتنوع الشخصيات التي انطلقت من أماكن مختلفة إلى أماكن شتى ومتنوعة، منها الريفي ومنها المدني ومنها المغلق ومنها المفتوح. بسبب انفعالها بالأحداث، وتناثرها متنقلة في الأراضي السورية عامة، ومنها من وصل إلى أماكن إقليمية ودولية، ليظهر المكان في (مدارات الشرق) مكانًا احتوائيا للحركة المجتمعية في تلك الفترة، يضيق أحيانًا، وينغلق، ويتسع، وينفتح أحيانًا بحسب الحركة الاجتماعية، والحالة النفسية للشخصيات الروائية، ويتسم بالإيجابية أحيانًا(أماكن الثورات السورية)، وبالسلبية مرة أخرى(السجن)، بناء على الصفات السلوكية والقاعدة الخلفية للشخصية الموجودة فيه، أو المتنقلة إليه أو الفارة منه. ليتشكل فضاء رواية مدارات الشرق الموضوعي، من خلال حُسن التوظيف التاريخي للمكان في الرواية.

- الحواشي الختامية:

[1] محمد عبد الله القواسمة: **البنية الروائية في رواية الأخدود (مدن الملح) لعبد الرحمن منيف**، مكتبة المجتمع العربي، عمّان، الأردن، **ط1، 2008، ص91.**

[2] نفسه، **ص91.**

[3] خليل الموسى: **آفاق الرواية، بنية وتاريخًا ونماذج تطبيقية**، مطبعة اليازجي، دمشق، سورية، **ط1، 2002، ص23.**

[4] يُنظر، هدى نايف الجبر: **الموضوع التاريخي في الرواية السورية المعاصرة(1990م-2003م)**، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سورية، **1430هـ/2009م، ص90- 91.**

[5] حسن بحرواي: **بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)**، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، **ط1، 1990، ص26.**

[6] نفسه، **ص27.**

[7] صلاح صالح: **قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات**، القاهرة، مصر، **ط1، 1997، ص25.**

[8] نبيل سليمان: **رواية مدارات الشرق، الأشرعة (1)**، دار الحوار، اللاذقية، سورية، ط1، 1990، ص7.

[9] شارل كريفل: "المكان في النص"، في **الفضاء الروائي**، جيرار جُنيت، ومجموعة مؤلفين، ترجمة عبد الرحيم حُزَلْ، دار أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، **2002، ص71.**

[10] نفسه، **73.**

[11] نفسه، **ص75.**

[12] جوزيف. إ. كيسنر: **شعرية الفضاء الروائي**، ترجمة لحسن اهمامة، دار أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، **2003، ص7.**

[13] عبد الرزاق عيد، بالاشتراك مع محمد جمال باروت: **الرواية والتاريخ**، دراسة في مدارات الشرق، دار الحوار، اللاذقية، سورية، **ط1، 1991، ص42.**

[14] يُنظر، الأشرعة، **ص216** إلى **219.**

(15) يُنظر، نبيل سليمان: **رواية مدارات الشرق، بنات نعش (2)**، دار الحوار، اللاذقية، سورية، **ط2، 1994، ص9** إلى **12.**

(16) الأشرعة، **ص33.**

(17) بنات نعش، **ص93.**

(18) نبيل سليمان: **رواية مدارات الشرق، التيجان (3)**، دار الحوار، اللاذقية، سورية، **ط1، 1993، ص86.**

(19) يُنظر، نفسه، **ص405.**

(20) يُنظر، نفسه، **ص31-32.**

(21) نفسه، **ص135.**

(22) يُنظر، نفسه، **ص134** إلى **143.**

(23) يُنظر، نفسه، **ص324** إلى **331.**

(24) يُنظر، نبيل سليمان: **رواية مدارات الشرق، الشقائق (4)**، دار الحوار، اللاذقية، سورية، **ط1، 1993، ص494- 495- 543- 544- 545.**

(25) يُنظر، بنات نعش، **ص147.**

(26) يُنظر، نفسه، **ص148.**

(27) يُنظر، نفسه، **ص150.**

(28) يُنظر، نفسه، **ص161.**

(29) يُنظر، نفسه، **ص163.**

(30) يُنظر، نفسه، **ص164.**

(31) يُنظر، نفسه، **ص166.**

(32) يُنظر، نفسه، **ص478** إلى **484.**

(33) يُنظر، الشقائق، **ص93** إلى **106.**

(34) يُنظر، نفسه، **ص179.**